د . احسان عباس

نظرة في ملف الادب السوداني

أجد في هذا الملف ـ على غياب كثير من الاسماء اللامعة ـ صورة من الجهد السوداني في ميدان الادب لازمة مفيدة . اما انها لازمة فلأننا بين الحين والحين نحتاج الى ما يرسم لنا ـ ولو بلمحات موجزة ـ صورة عن تطور الخطوط الادبية في هذا القطر العربي او ذاك ، لصعوبة استكمال هذه الصورة من القراءات المفردة ، وللبطء الذي يواكب الدراسات الشمولية ، ويزداد شعورنا بلزومها حين يكون الملف الادبي عن قطر كالسودان، تقوم في وجه التعرف الى ادبه صعوبات جمة ، ليس اقلها اثرا مشكلة النشر ، وهي مشكلة تكاد تكون مزمنة ، ولم تحل الا حلا جزئيا بطبع بعض النتاج السوداني في خارج القطر . وقد وقف الاستاذ عبدالله حامد الامين عند هذه المشكلة وهو يتحدث عن الرواية السودانية فقال :«ان الانتاج الروائي في السودان ظل محدودا وبطيئا بسبب الصعوبات التي تواجه النشر ... وان عملية التوزيع تبعا لذلك كانت غير منتظمة ، وكانت محدودة في الداخل والخارج على السواء ، وقد حالت صعوبات النشر دون خروج اكثر الاعمال الادبية والروائية في موعدها » . وما قاله في حال الرواية يصدق في حال غيرها من الفنون الادبية ، وتلك مشكلة جديرة بالدرس ووضع الحلول اللازمة . على انها اذا حلت على نحو يكفل طبع النتاج السوداني ، فانها لن تحل بذلك كل ما يحيط بذلك النتاج من مشكلات ، اذ تظل « غربة » الادب السوداني، كغربة الادب الليبي والتونسي والجزائري والمغربي بين « المشارقة » امرا يتطلب علاجا ، فان الادب العربي في هذه الاقطار يجيش بتجارب ادبية لافتة للنظر ، وفي كثير منها من العمق والاصالة ما يكفل لها القبول والاقبال ، بل التأثير ،بل الأثارة الى مناهج وطرائق ومواهب جديدة .

وفي تجربة القاص السوداني الكبير « الطيب صالح » ما يؤكد هذه الحقيقة ، فهو قد استطاع كما يقول الاستاذ عبدالله حامد الامين ان يصل بالقصة السودانية والعربية « الى مستوى عال من التقنية اثبت فيه مكانته الخاصة وتجربته المتميزة » ، ولتجربة الطيب الصالح بعد آخر ، فانها تجربة مليئة بالعناصر المحلية في المبنى والمفهومات والحوار ، فكيف استطاعت ان تتخطى النطاق المحلي لتقابل بالاعجاب والتقدير ، وقبل ذلك بالدراسة والتحليل ؟ ان الجواب على هذا السؤال يمس مشكلة اخرى يثيرها هذا الملف . هل نقول ان سرّ ذلك جدة في النهج الروائي ؟ هل نقول انها طرافة في النموذج ؟ قد يقال كل ذلك وغيره ، ولكن تظل هناك حقيقة هامة وهي ان التجربة المحلية ـ في اي قطر ما ـ تحتاج عناصر اخرى غير محلية لتكسب لها القبول والشيوع ، وهذا شيء لا بد ان يعيه الذين يدعون الى اقليمية الادب السوداني ، فان الانكفاء على الخصائص المحلية لا يصنع وحده ادبا متميزا ، لان تلك الخصائص المحلية محتومة الوجود حتى لو حاول الاديب ان يتخلص منها . ذلك اننا لا ننتظر من الاديب السوداني ان يقول لنا : أنا سوداني ، او يتحدث الينا عن قرع الطبول لنقول انه افريقي ، لان ادبه نفسه يحمل ـ ولا بد ـ سمات تقرر انتماءه ، دون اعلان . وحسن ان نحاول الكشف عن اثر البيئة الجغرافية في الادب ـ كما حاول الاستاذ عبدالهادي الصديق في مقاله المنشور في هذا الملف ـ فذلك تعميق لفهم الوشائج الاولى الحتمية بين كل ادب وبيئته ، ولكن الاديب السوداني ، لا يستطيع بتلك الحتمية وحدها ان يجعل ادبه ذا اثر عميق دائم حتى في السودان نفسه ، فكيف يتم له ذلك خارج بلده ؟! . انه لا خوف على ادب السودان من ان يكون سودانيا افريقيا (وهل يستطيع الا ذلك ؟) وان يكون في الوقت نفسه عربيا اسلاميا ، لانه ليس من تناقض منطقي او تاريخي بين هذه الحقائق كلها . حتى العودة الى رموز الوثنية الافريقية لا تخيف ابدا ،

وليست هي سمة استقلال فارقة ، لان الرموز تظل تحمل ابعادها التي تتجاوز الحدود الضيقة في خيال مستخدمها ، اذ الرمز يتجاوز اللون والمكان والعرف والدين ليصبح انسانيا . حتى العودة الى ما قبل مظاهر الوثنية (ان كان لها قبل) أعني الى رموز العالم السديمي ، الى التخلق الاول من رحم الكون المنتهب ، الى الخصوبة التي حملتها الموجة الاولى ،الى البحث عن منطقه « البين بين » (في العدم الساكن بين لفه البحر وشكل النار) (بين الصحو الناصع والسكر) (في الحمأ الساخن قبل أن يفور البحر ثم ينجلي) كما يفعل الشاعر محمد عبد الحي ـ اقول حتى هذه العودة لا غبار عليها رغم تشبثها بالجمالية المحض ، لانها عند التحليل النهائي ، تتحدث بمشكلة الانسان ، بين الازل والابد . فالسمندل فيها ـ وهو رمز الخلود أو التجدد ـ ليس ببعيد عن صورة الخضر في الموروث الاسلامي ، ولا هو غريب على رمز « الحقيقة المحمدية » في التصور الصوفي ، وحين يلجأ الشاعر الى هذه الرموز يكون افريقيا مسلما عربيا ، سواء أذبح له أهله وهم يستقبلونه وعلا صحراويا أو خروفا أو جملا ، أو كانت صوفيته مستمدة من « عطاء الحركة الرخيمة لرقصات الغاب » أو من « ابن عطاء الله السكندري » .

ومن يقرأ مقال الاستاذ عبد الهادي الصديق يجد أنه يميز الشاعر النور عثمان أبكر ، بالدعوة الى هذا الانكفاء ، وأن ذلك أثار معركة على صفحات الصحف ، وأنا لم أقرأ شيئا عن هذه الدعوة ، سوى ما جاء في المقال المذكور ، ولا أستطيع أن أحكم عليها وعلى مداها ، ولكن تاريخ الجهر بهذه الدعوة قد صدر ـ فيما يبدو ـ في أعقاب هزيمة حزيران . أتراه وليد المرارة الناجمة عن تلك الهزيمة التي أثارت لدينا أيضا شعورا بالزراية على المنتمى والتراث وشتما للماضي بسبب الحاضر ؟ ان كان الامر كذلك فالامر هين ، سحابة وتنجلي ، وان كان غير ذلك فلا ريب في ان مصيرها مصير اخوات لها كثيرات، في اقطار اخرى من الوطن العربي .

ومن اللافت للنظر أن يتصدى صلاح أحمد ابراهيم للرد على هذه النغمة النشاز ، ففي عروبته الاصيلة ما يؤكد ذلك . ولكن الذي لفت انتباهي أن النور تصدى لتجربة مماثلة لما تصدى له صلاح وعبر عنه بمرارة في ديوانه « غابة الابنوس » ، وذلك ما تجده في ديوان النور : « صحو الكلمات المنسية » (ص : ٣٥) .ورغم ذلك كله فان شعر النور أسمى بكثير من دعوته الفكرية ، وليس من الضروري أن يكون الشاعر ذو الخيال الجميل سليم التفكير دائما . وأنا هنا أفتح صفحة من ديوانه ـ دون قصد عامد ـ وانقل منها :

تذاكرنا مقاهينا وكيف نشيخ في ظل التخفي
والرياء العذب
هنالك حيث نفقد حسنا بالموت ، بالرؤيا التي تبني
ملاحم يقظة نشوى
ونفقد حبنا للارض ، للانسان يروي ضرعها ، يفنى
لكي تسخو مواسمها
وتعطي القمحة الاولى
تذاكرنا مقاهينا ، وأغنية شدوناها صداها لم يزل
ينبض
طويل دربنا للفجر يا سقيا ربيع الارض

انقل هذا المقطع من القصيدة وأتساءل : أهذا تعبير عن « اقليمية » ضيقة ؟ أليس هذا هو الانسان العربي ؟ ثم أليست هذه ـ بعد ذلك كله ـ سمات انسانية عامة في معظم ملامحها ؟! وأكتفي بهذا القدر لاعود الى هذا الملف السحري الذي اضطلع بعبئه ـ فيما أعتقد ـ حسب الله الحاج يوسف ، ونظم سلكه الدكتور سهيل ادريس .

وأما أن هذه الصورة من الجهد مفيدة ـ بعد أن تبين انها لازمة ـ فشاهده هذا التنوع في المواد : فهناك الشعر والقصة القصيرة والدراسة الادبية ، وقد تنوعت الدراسات نفسها ، فدراسة عن العلاقة بين الشعر والبيئةالسودانية، ودراسة عن جذور الادب الشعبي ، وثالثة عن القصة القصيرة ، ورابعة عن الرواية ، وخامسة عن مسيرة المسرح السوداني ، ودراسة عن ديوان « الرحيل في الليل » للشاعر أبو ذكرى ، (١١ قصيدة ، ٦ اقاصيص ، ٦ دراسات) ، وتشمل هذه الصورة من الجهد الى جانب التنوع قطاعا كبيرا يجمع بين أدباء العقد السادس والعقد السابع من هذا القرن ، فهي تمثل استمرارية جيل (جيلي عبد الرحمن ومحيي الدين فارس وقبلهما محمد المهدي المجذوب أكثر الشعراء تطورا وشجاعة في تطوره) وازدهار جيل (محمد المكي ابراهيم ، محمد عبد الحي ، عبد الرحيم أبو ذكرى ...) في ميدان الشعر ، وكذلك هو الحال في ميدان القصة القصيرة والدراسات الادبية ، فهنالك الراسخون زمنيا وممارسة ، وهنالك الصاعدون .

ولا ريب في أنه ليس في الامكان أن أقف عند كل هذا العدد من المقالات والقصائد والاقاصيص محللا ودارسا، فذلك يشبه حاشية على متن ، وأنا لا أحب الحواشي ، ما دامت الفائدة مباشرة جلية يؤديها المتن نفسه . ولا ريب كذلك في أني افدت كثيرا من الدراسات المنشورة في هذا الملف ، ففي دراسة « الاصل المكاني للشعر السوداني » حقائق هامة ، وان كان الكاتب قد طرحها بين ركام كبير من الاستطرادات غير الضرورية والمقدمات الطويلة المرهقة، ومع التقدير التام لآراء ابن خلدون أرى أن الاستشهاد بها في المقال خارج عن طبيعة التعليلات العلمية . وفي دراسة سيد حامد حريز عن جذور الادب الشعبي السوداني تأثيل لجذور وأبعاد هامة ، وهي دراسة متأنية، قائمة على الدقة الاكاديمية ، وأنا أرجو أن أقرأ للدكتور حريز مزيدا من البحوث في هذه الناحية ، وكم كانت سعادتي كبيرة حين تسلمت قبل أيام كتاب « دوباي »

للإستاذ الطيب محمد الطيب . وهو دراسة لنماذج من الشعر الشعبي كالدوباي والشاشاي والربق والجابودي ... الخ وتعريف بخصائص كل نموذج منها ومميزاته ، فهذا اللون من الادب المتصل بعرق الثرى لا يحسنه الا السودانيون انفسهم ، وفي انتزاعهم لدراسة هذا اللون من أيدي العابرين في بيئة السودان ما يؤكد اليقظة المتفتحة دون الانغلاق الاقليمي الضيق . ان جهود الدكتور حريز في الدرس والتحليل وجهود الاستاذ الطيب في التعريف والتدليل لا بد ان يواكبها عكوف دارسين آخرين على الالوان الغنية من ادب السودان الشعبي .

وتعد دراسة عيسى الحلو في القصة القصيرة وصلا طيبا لما سبقها من جهود في هذا الميدان ، ورغم أن الكاتب يؤكد بكل تواضع انه لم يقدم دراسة وانما قدم «قراءات» ، فان مقاله منطلق جيد للتفريع والتحليل والاستقصاء . ولا ريب في ان عميد الندوة الادبية (ترى هل تغير اسمها ؟) الاستاذ عبدالله حامد الامين من أقدر الدارسين على تتبع نمو الرواية السودانية ، لانه يرعى تطورها ويعايشها نمو الرواية السودانية ، لانه يرعى تطورها ويعايشها ، من خلال دأبه المستمر في خدمة الادب السوداني ، ورغم انه يراعي في رسمه البياني خطا أو اثنين ، فانه لا يفصل عن ابراز ما يخرج عن نطاق هذين الخطين في سياق الرواية السودانية ، على أن أي مقال لا يفي القول حقه في تطور الرواية ، ولا بد من دراسة منهجية متكاملة في هذا الصدد .

أما مقالة السيد بدر الدين حسن علي عن المسرح السوداني فانها محدودة ، اخبارية الطابع ، وفيها معلومات ضرورية لمن سيحاول أن يكتب تاريخ المسرح ، وحسنا فعل بدر الدين حين اقتصر على فترة يعرف مضموناتها معرفة دقيقة ، ولم يوغل في ابراز تاريخ لا يعرفه ، كما فعل أحدهم ذات يوم اذ بدأ بدراسة المسرح عند الاغريق ليصل من ذلك الى دراسة المسرح السوداني .

واما نقد ديوان « الرحيل في الليل » للاستاذ صديق محيسي ، فانه من ذلك النوع من المحاولات النقدية التي تضيع الافكار فيها في متاهات التعبير ، وحبذا لو تبلور لدى الكاتب تعبير حاسم دقيق ناصع ، فان النقد لا يتحمل التعميات والرموز كما يفعل المتصدون للنقد في بيروت ، النقد متواضع يملك ثقة خاصة بما يريد أن يؤديه ، ولا يتحدث من عل ، ولا يرسل رقىً واسجاع كهان ، ولا يعمّي ليقال فيه : هذا عميق ، ولا يستعمل الصور ليقال هذا سحر أو شعر ، ومعذرة لصديق محيسي ، فأنا لا أعنيه بهذا الكلام ، لان الفكرة لديه سليمة الا ان التعبير عنها شديد الالتواء ، ما معنى هذه العبارة : « يحاول أبو ذكرى هنا اقامة دلائل على أن العجز الانساني في العثور على هوية الحرية الخصوصية للطموحات الفردية ضمن اطار الكون انما ترتد باستمرار بفعل الكوابح والاسوار التي تنمو وتتكاثر في زماننا هذا من جراء الممارسات العسفية التي توجه ضد العالم بشكليه الظاهري والباطني » .

والقصة القصيرة ؟ والقصائد ؟ لا تزال القصة القصيرة السودانيه تتميز بأخلاقيتها الهادفة وسماتها الواقعية ، أيا كان المبنى الذي تعتمده ، أعني سواء أكان ذلك المبنى تقليديا أو تجديديا ، ولعل قصة « القبو » لجمال عبد الملك (ابن خلدون) أبرزها غائية من هذه الناحية مثلما أن « المنبه » شديدة الاعتماد على الاثارة المتأتية عن الشكل الدرامي ، مثلما أن صديقي القاص عثمان علي نور لم يفارق خطه الاجتماعي (الفوتوغرافي) . ومع التقارب في محور الموضوع بين قصتي ابراهيم عبد القيوم وحسب الله فان المقارنة بين القصتين كفيلة بابراز فروق أصيلة بين طريقتين احداهما تقوم على المنهج التراكمي الذي لا يتطلب حلا نهائيا لان الحل قائم في سياق التدرج . ويجذبك محمود محمد مدني بقصته «الحياة بين يافطتين» بما أوتي من قدرة على فهم دقيق للطبيعة السودانية ، ولكنه يفضي بك الى أن لا صراع هنالك ، بين طبقتين ، وانما محض سخرية ، يختبىء وراءها القدر .

ولعل أخلاقية القصة السودانية القصيرة تبعدها عن الصور والرموز الجنسية ، وهي في ذلك بخلاف الشعر الذي ينضح بالظمأ الجنسي في رموزه وصوره ، وربما كان هذا الخلاف فارقا منذ القديم بين الفنين ، وان عادا يلتقيان في هذا المجال على نحو يقصر من المسافة بينهما (بالاضافة الى قصرها أحيانا في المبنى والشكل) . والشعر في هذا الملف متفاوت كثيرا يصعب شده كله الى مقياس واحد، فمن واثق يصيد كل طيور الصور بتسديد، الى متعثر يتلعثم بالايقاع :

انت يا أشرعة المراكب التي ترسو ... (مكسور)
انت يا من لم يكن شدوك ... (رمل)
مهما جرى دمعي قعلى باب الرياح (كامل)

وأحب أن أقف قليلا عند علي الملك في « اربعة مشاهد في مدينة ما » ، فان هذا النوع من الانشاء ، لا يعتمد الايقاع المنتظم ، وعلى هذا فهو بحاجة أشد الى التعويض عما يفتقده . ان علي الملك يمزج الحب والحكمة واحيانا يمزجهما بسخرية لبقة ، وحين تقوى السخرية يحدث بعض التعويض ، أما حين تفتر، فان القطعة الواحدة تبدو فاترة أيضا ، ورغم الحكمة التي أوتيها علي الملك في المهد ، فان هذا اللون من الانشاء يحتاج حدة في التركيب، وحدة في الاستدارة النهائية ،على قاعدة الابغرام في الادب اللاتيني . ويكفي أن تقارن قطع علي الملك بقصيدة « المساكين » لابو ذكرى حتى تجد مدى ما يفعله الايقاع والخاتمة المستديرة معا في التلاعب بالاحاسيس ، بين رفع وخفض .

هل قلت شيئا حول القصائد الاخرى ؟ معذرة لاصدقائي ، ذلك حديث يطول ، ولعل لنا لقاء آخر ، والآداب ذات صدر رحب .

بيروت